محمد زفزاف

كيف نحلم بموسكو

كان الثلج يتساقط بكثافة وبرودة لاسعة. لكنه بعد مرور أيام قليلة تعوّد على هذا الجو. (قد نستطيع أن نتعود على كل شيء إذا اقتضت الضرورة) ولذلك فإنه بعد مرور هذه الأيام القليلة، أصبح يعتبر أن الأمر عادي إذا ما اختفت الشمس نهائياً. ولم يعد يعرف إذا كانت الشمس ضرورية فعلاً، لهذه الحدائق والأشجار والبساتين التي اختفت خضرتها وتغطّت بالثلج، لكنّ رؤوس بعض النباتات تبقى مطلّة، وبعض فروع الأشجار كذلك، متحدّية هذا الثلج الذي يتساقط بكثافة وبرتابة. يتساقط ندف الثلج بشكل عمودي، لأنه لم تكن هناك ريح ولا أشعة شمس. وإذن، فموسكو تعيش بدون ريح ولا شمس، وبدون برتقال مغربيّ هذه السنة. لأن الثلج يتساقط على موسكو، والجفاف يعم بساتين البرتقال في المغرب. قضى أول ليلة له في فندق «منسك» العتيق. ورغم المكيّف، فقد كانت تتسرّب برودة قارسة جداً من شق في النافذة. لم يكن يتحدث اللغة الروسية. ولذلك لم يستطع أن يتصل بإدارة الفندق. لأن تلك الحروف البسيطة التي يعرفها بالفرنسية أو الإنجليزية أو الإسبانية لم تكن لتفيده هنا. فقط التقى أثناء العشاء برئيسة الخدم في المطعم التي كانت تتكلم بلغة إنجليزية رطنة، لكنها على كل حال كانت مفهومة. في الثانية عشرة ليلاً يغلق المطعم. وما كان عليه إلا أن ينام حتى تأتي المرافقة في الصباح.

ـ لقد كان البرد شديداً ولم أنم جيداً. كان هناك برد يتسرب من شقّ في النافذة.

ـ كان عليك أن تتّصل بإدارة الفندق.

ـ إنهم لا يتقنون أية لغة.

ـ يا إلهي! كان عليك أن تتصل بي في بيتي. إن رقم الهاتف معك.

ـ لم يكن ضرورياً أن أزعجك في ذلك الوقت المتأخر من الليل.

ولأنه كان يعرف المرافقة من قبل، قال لها:

ـ إنني غاضب منك.

قالت:

ـ لا تغضب، يا حبيبي، سوف نغير لك الغرفة. تعال لنتناول طعام الإفطار. كل جيداً. إنك تبدو نحيفاً كما لو كنت من الحبشة.

ـ سوف أشرب شاياً أسود.

هذا يكفيني .

ـ لا، سوف تأكل جيداً. وسوف ترى كيف يأكل الروس في الصباح. ليس سهلاً أن تقاوم البرودة الشديدة بدون أكل. أنت الآن لست في افريقيا.

ولأول مرة، وفي أول يوم، عرف كيف يتناول الروس طعام إفطارهم، يأكلون بشهية كبيرة وبنهم. لكن من أدراه أن هؤلاء الناس جميعاً من أصل روسي؟ إنهم يختلفون في السحنات لكنهم يتكلمون لغة واحدة، وليسوا في حاجة إلى مترجم أو مترجمة. كان يحتسي شايه وهو يتأمل هذا العالم الغريب، الذي لن يصبح غريباً عليه فيما بعد. أخرج من جيبه علبة سجائر، كانت المرافقة منهمكة في الأكل مثل باقي الناس، وعندما رفعت رأسها، رأته يضع السيجارة بين أصابعه. أزاحت أصِيص الأزهار الموضوع فوق المائدة قليلاً؛ ثم قالت بلهجة عتاب:

ـ ماذا تريد أن تفعل حبيبي؟

ـ ها أنت ترين. ليست عندي شهية لآكل مثلكم. لقد شربت شايي وأريد أن أدخّن.

ضحكت وهي تقول والسكين في يدها اليمنى:

ـ ألم تلاحظ شيئاً؟

ـ لا. لم أفهم.

ـ انظر أمامك جيداً فوق المائدة.

ـ إنني أنظر جيداً. هناك فنجان أمامي وصحون أمامك، وأَصِيص أزهار.

ـ لكن، ألم تلاحظ أنه ليست أمامك منفضة؟ إنهم لا يدخنون في هذا المكان. سوف تعرف ذلك فيما بعد. ضحكت مرة أخرى واستمرت في تناول إفطارها. بينما أخذ هو يتجول بنظراته في المطعم الواسع الكبير التابع لفندق «منسك». كانت الرؤوس منحنية على الصحون، وأصص الأزهار تخفي بعض تلك الرؤوس، والرؤوس التي تعبت من المضغ، استرخت إلى الوراء ومناديلها تمسح أفواهها. ربما كانت بعض تلك الرؤوس تتجشأ أو تضرط الآن. على كل حال فمخارج الهواء موجودة في جسم الإنسان.

وفكر أنه من الأفضل ألا يأكل كثيراً. حتى لا يفعل ذلك الشيء مثلهم. وفكر في ذلك المثل العربي الذي يقول بأن البطنة تذهب الفطنة. لكن بالرغم من أنهم يأكلون كثيراً، فإن فطنتهم لم تذهب، فصنعوا أشياء كثيرة مثل مبيدات الحشرات أو مبيدات الإنسان.

انتهت المرافقة من الأكل، واسترخت هي كذلك إلى الخلف وأخذت تمسح فمها مثل الآخرين. وقالت:

ـ هل تذكر عندما كنا في ذلك البيت في بلدك؟ أكلنا قصعة من الكسكس بأيدينا، وأكلنا طعاماً آخر لا أذكر اسمه بأيدينا كذلك. كان ذلك الطعام لذيذاً بدون ملعقة ولا سكين. وهل تذكر أيضاً عندما رأينا قرب الجامعة الطالبات يركبن عربات تجرها الحمير ليصلن إلى الجامعة؟

يا إلهي! كان ذلك المنظر جميلاً.

ـ نعم. جميل. لأنهن لم يجدن ثمن ركوب الحافلة.

ـ غريب!

ـ ليس غريباً ولا أيّ شيء.

ـ نحن عندنا أيضاً في الأقاصي طالبات يركبن عربات تجرها الكلاب.

ـ ها أنت ترين! كل طالب يجد نفسه في كل مكان مجروراً. في السابق كان الإنسان يجر عربة يركبها إنسان آخر في الصين. فالكل مجرور إذا وجد من يجره.

ثم أضاف:

ـ إني أريد أن أدخن.

ـ عندما نخرج.

ثم التفت يميناً وشمالاً، ففهم رجل يضع نياشين على بذلة مدنية، ما أرادت أن تقوله بإشارتها تلك. جاء على الفور، ودون أن يتحدث ذهب ورجع بعد أن تحدثت إليه بيضع كلمات وصب لها القهوة في الفنجان. ثم قالت:

ـ سوف أرشف هذه القهوة بسرعة، وسوف ننصرف حتى تتاح لك فرصة التدخين. لماذا لا تكفّ عن التدخين؟

ـ سوف أحاول معك ما أمكن، هل كل الأماكن يمنع فيها التدخين؟

ـ لا، بالتأكيد.

ـ وأنت، ألم تدخني إطلاقاً؟

ـ أبداً. علمونا في المدارس منذ الصغر مضارّ التدخين. لقد رأيت الأطفال عندكم يجمعون أعقاب السجائر ويدخنونها.

ـ ما شفتي والو آبنتي.

ـ لم أفهم ما تقول.

ـ اسمحي لي لقد نسيت، وتحدثت معك باللهجة الدارجة.

ـ لا بأس!

كانت السيارة تنتظرهما في الخارج عند باب الفندق إلى جانب سيارات أخرى. ظلّا واقفين عند باب الفندق الواسع. ولم يدرِ هو لماذا توقفت. كان ينظر في ذهول إلى الناس الذين يمشون في طابور واحد على الرصيف تحت الثلج المتساقط. قالت له لدى وصوله إلى المطار إن درجة الحرارة هنا في موسكو تبلغ العاشرة تحت الصفر. يا إلهي! كيف يستطيع أن يتحمل؟ لكنه فيما بعد استطاع أن يتحمل.

وقال لها:

ـ هل تنتظرين أحداً؟

ـ نعم. أنتظرك أنت: أن تدخّن. فقد يكون السائق من الذين لا يدخنون. دخّن قبل أن نذهب إلى البيت، فوالدي هو كذلك لا يدخن لكنه يشرب كثيراً وكثيراً جداً. حتى إن والدتي تخلق له جحيماً حقيقية عندما يسكر.

ثم أضافت عندما أنهى تدخين سيجارته:

ـ إياك أن تضغط العقب بقدميك مثلما تفعلون هناك. قمامة الأعقاب وراءك.

السائق البدين كان يبدو عليه أثر النوم، وكان أمامه ثلاثة كتب ضخمة، ربما يقرأ منها قبل أن يلتحق به الراكب، في بعض البلدان الأوربية شاهد مثل هذا، في حين لاحظ في بعض البلدان العربية أنه عندما يركب سيارة أجرة لا يسمع سوى الشكوى والحديث عن كثرة الأولاد كما لو أن السائق طلب من أحد مّا أن يساعده على إنجابهم.

موسكو مغطاة بالضباب، لكن هناك آلات تجرف الثلج. كان ينظر إلى هذه العمارات الطويلة والعالية، إنها مثل قبور ضخمة يرقد فيها العديد من الأموات، على أمل انتظار يوم البعث. هل هي مدينة للأموات كبيرة مقبورة تحت الثلج؟ عندما كان يتخيل ذلك، قالت:

ـ لم يبق إلا حوالي نصف ساعة ونصل إلى البيت.

في الطريق كانت تتحدث إلى السائق الذي كان يجيب باقتضاب. ويبدو أنه لم يكن يهمه أن تتحدث إليه. ربما كان يفكر في شيء يهمه أو في طريقة قد توصله إلى رئاسة الاتحاد السوفياتي. إن خروتشوف لم يكن سائقاً على كل حال. لقد كان فلاحاً وقد وصل مع ذلك. وهذه الدنيا فيها العجائب والغرائب. وتذكر تحت ثلج موسكو كم من إنسان في بلده لا يفرق بين الألف والزرواطة أصبح وزيراً أو نائباً في البرلمان. ولماذا لا يكون هذا السائق ذات يوم نائباً أو وزيراً في بلده، لأن أمامه في السيارة ثلاثة كتب؟ يقرأها أو لا يقرأها هذا لا يهم. لكن الكتاب أمامه.

وقالت المرافقة:

ـ فيم تفكر؟ سوف نصل قريباً.

ـ إنني أفكر في الكتب.

ـ هل تريد أن تشتري كتباً؟

ـ إنني لا أقرأ الروسية.

ـ هناك كتب بالفرنسية تباع هنا، وهناك أيضاً كتب باللغة العربية.

ـ هذا شيء جميل. أريد أن أقتني كتباً.

ـ إنها كتب مطبوعة هنا، وهي غير موجودة عندكم وسوف أهدي إليك بعضها.

ـ آه! كم أنت رائعة!

كاد السائق البدين أن يصطدم بشاحنة كبيرة. لكنه استطاع أن يتجنب تلك الشاحنة. وكادت السيارة أن تنقلب. لكن صمته وهدوءه مكناه من تجنّب ما كان يمكن أن يقع.

وقالت المرافقة:

ـ يا إلهي! ربما كان قدرك هنا، وقدري معك كذلك. وكانت الصحف سوف تكتب عنا.

قال:

ـ الموت لا يهمني. لقد ماتوا قبلنا، وسوف نموت. كلنا نتساوى في المرض والموت.

ـ والحب؟ ألا نتساوى فيه؟

ـ قد نتساوى فيه كما نتساوى في الكراهية والأنانية والكيد بعضنا لبعض، وقد نتساوى في حب هذا الشيء أو كراهيته. إن الإنسان كائن غريب. هناك من يدوس وردة، وهناك من يهديها لحبيبته. هناك من يصنع عربة للأطفال وهناك من يصنع مدفعاً للرجال. الأطفال يتدربون على أسلحة بدون رصاص عندما يكونون صغاراً، لكنهم عندما يكبرون يحققون أحلامهم فيقتتلون. عالم غريب! أليس كذلك؟

وكأنها لم تسمع كلامه. دفعت نظارتيها فوق أرنبة أنفها وقالت:

ـ لقد وصلنا الآن.

ثم تحدثت إلى السائق الذي توقف في ساحة يغطيها الثلج. وتحدثت إليه بالروسية، ثم أخرجت من حقيبتها بطاقة وضعت عليها إمضاءها، وفعل السائق الشيء نفسه، ثم أخرج هو بدوره بطاقة لا تشبه بطاقتها، أمضياها معاً. لم يفهم أي شيء في العملية. لكن السائق فتح لهما الباب وانصرف صامتاً، وهو يقول «سباسيبا». كان ندف الثلج يتساقط. وهرولا باتّجاه العمارة القريبة. توقفت عند بابها. وقالت:

ـ هنا بيتنا. سوف ترى كم أن أمي طيبة! وكيف تتعامل مع والدي عندما يسكر.

ـ لا أريد أن أرى ذلك المشهد.

قالت وهي تضحك:

ـ هل تخاف أن أمنعك من الشرب عندما نتزوج؟

ـ ومن قال إننا سوف نتزوج؟

ـ من يدري؟ لقد أحببت مغربياً كان يدرس في موسكو، لكنه خانني. كان يعيش في بيتنا طَوال خمس سنوات. لكنه عندما أنهى دراسته عاد إلى بلده ونسيني. هناك من يدوس الوردة وهناك من يقدمها لحبيبته. أليس هذا هو كلامك؟

ـ صحيح!

ـ فلنصعد الدرج. إننا نسكن في الطابق الأول.

وهما يصعدان الدرج، كان يفكر في هذا المغربي الذي خانها. قد يحصل كل شيء بين امرأة ورجل. قد تخونه وقد يخونها. حتى الأبناء يخونون آباءهم. وقد يخون الآباء أبناءهم. وفي نهاية الأمر فإننا لا نختار آباءنا ولا أبناءنا.

فكّر في هذا وهو يصعد الدرج.

كانت الوالدة العجوز امرأة طيبة جداً. وكذلك كان والدها رجلاً طيباً غير مخمور كما وصفته ابنته (ومرة أخرى، نحن لا نختار أبناءنا). تقدم والدها بهدوء وهو يرتدي بذلة سوداء أنيقة وقميصاً أبيض وربطة عنق جميلة تلائم البذلة. انصرف بكل هدوء. كانت المائدة معدة على الطريقة الروسية. ألقى نظرة على الأطعمة. لم يتعرف على بعضها. لكنه عندما رفع بصره إلى رفّ أمامه رأى مجموعة من القنينات مصطفة مثل العساكر. خمن أنها خمور بكل تأكيد. ذهبت والدتها وعادت لتقول:

ـ إن ابنتي قالت بأنك تشرب كثيراً. ما الذي أستطيع أن أقدمه لك؟

(وبطبيعة الحال، كانت ابنتها هي التي تترجم بأمانة كلام أمها ـ لا نختار آباءنا ولا أبناءنا ـ سبحان اللّه!).

ـ قولي لها أريد أن أشرب كذا.

صبت وانصرفت وقالت: «في صحتكما يا ولديَّ».

ثم عادت بطعام آخر. أشياء لم يألفها. انصرفت المرأة العجوز الطيبة. ثم دخل الوالد الرجل الهادئ. قال كلمة واحدة بالروسية ثم انصرف. ترجمت ابنته:

ـ في صحتكم أيها الشباب.

بعد ذلك:

ـ هل تعرف أنني أحبك منذ التقيت بك في المغرب؟!

ـ لا شك أنك شربت كثيراً.

ـ أقول لك كلمة حق. إنك لا تشبه ذلك المغربي الخائن.

ـ ربما كان سوء تفاهم فقط. الناس لا يتشابهون في أيّ مكان، كلنا بشر. قد نحب وقد نقتتل في أي مكان وفي أي زمان. وقد نخون أيضاً.

لكن يبدو أنها رفضت أن تتقبل فكرة الخيانة هذه. إنه الحب الخفي الذي يتضمن كراهية. وكم من كراهية تضمنت حباً! إنها طبيعة بشرية أزلية قد لا تتغير. لكن كل شيء يمكن أن يتغير في هذا العالم.

عادت الوالدة العجوز الطيبة، ثم عاد الوالد العجوز الطيب، تحدثا بالروسية إلى ابنتهما وكأنهما كانا يتأكدان من أن كل شيء يسير على ما يرام. هذا ما خطر على باله.

وعندما مرت لحظات، شربت كثيراً فبدت له مثل طير قد تدلّى فتفلّى:

ـ لقد أحببتك منذ أن رأيتك. إنك لست خائناً. هل تعرف أن الخيانة هي سبب مشاكل البشرية؟ لقد قرأت لشكسبير بكل تأكيد. آه! كم أحب شكسبير سائس الخيول ذاك. إن العظماء قد لا يكونون بالضرورة من عائلات بورجوازية. هل تعرف أن البابا كان يشتغل في المناجم. وأنه كان لاعب كرة قدم فاشلاً وأنه يكتب، ولا أدري ما إذا كان اليوم يكذب؟ وهل تعرف أنني أحبك؟ وأنك لن تستطيع أن تخونني. وأنني لست سكرى، وأن والدتي تقمع والدي عندما يمعن في الشراب.

استمرت في الكلام الذي كفّ عن أن يكون مفهوماً. ودخلت الوالدة مرة أخرى وهي تتثاءب. تحدثت إلى ابنتها بالروسية، فردت عليها. وعلى الفور أغمضت عينيها.

انسحبت الوالدة وظل هو يحلق في فضاء الغرفة دون أن يعرف ما يفعل بنفسه. لكنه في نهاية الأمر، وبعد تفكير طويل، قال لنفسه بأنها ربما تكون صادقة وأنها تحبه بالفعل، وبدا له أن التعبير عن عاطفتها لا يُشبه تعبير امرأة مغربية ـ على الأقل، من اللواتي عرفهن ـ ظل يفكر ويحلق في السقف. ثم نام. وعندما استيقظ في وقت متأخر، وجد نفسه وحيداً في الغرفة. أراد أن يذهب إلى الحمام، لكنه لم يعرف الطريق إليه. إلا أنها جاءت، ويبدو أنها قد استحمّت.

ـ صباح الخير. إن فطورك ينتظرك. هل نمت جيداً؟ لقد هيأت الوالدة طعام الإفطار. أنا كنت بانتظار أن تستيقظ حتى نفطر معاً. وكانت تحرك شعر رأسها الذي يبدو أنه كان لايزال مبللاً. قبلته على وجنته، ثم قادته إلى الحمام بعد أن شغلت موسيقى بوب روسية. وعندما غادر الحمام، توجها إلى مائدة الإفطار. كانت تضحك بتلقائية وتتحدث عن الحب والكراهية ومزايا الشيوعية. ولم تكن تنسى بطبيعة الحال خيانة الرجل للمرأة، ناسية بذلك خيانة المرأة للرجل، وهو يرشف شايه. دخلت الوالدة العجوز الطيبة. حيّته وظلّت واقفة كما لو كانت تقول في خدمتكما. عيناها زرقاوان لامعتان، لا يبدو عليهما أثر الشيخوخة.

وقالت هي:

ـ إن أمي وأبي أحباك للوهلة الأولى. وفوق هذا، فقد سبق لي أن تحدثت إليهما عنك عندما عدت من المغرب. انظر إلى والدتي كيف تنظر إليك.

ـ إنها امرأة طيبة.

ثم تحدثت الوالدة، فترجمت هي:

ـ قالت أمي: لا شك أنكما ستكونان سعيدين في الحياة.

ـ وماذا تقصد والدتك بذلك؟

قالت: تقصد أننا سنتزوج وننجب ونعيش سعيدين، ولن يكون أحدنا خائناً. هل تفهم؟

ـ يبدو أنك غير عادية. وبهذه السهولة تتم الأشياء. إذا كانت تتم بهذه السهولة فلذلك تكثر الخيانة. هل تفهمين أنت كذلك؟

ـ عندما نذهب بعد يومين إلى منسك سوف تفهمني جيداً. إنني لست مغفلة إلى الحد الذي يمكن أن تتصوره.

في الحقيقة، لم يكن يفهم أي شيء في هذه القصة. شيء غريب ومفاجئ يقع في هذه الحياة. ارتبك أكثر عندما أكدت الوالدة مرة أخرى:

ـ يكفيكما طفلان، ولد وبنت لأن كثرة الأولاد تشوش على الحياة الزوجية. ولولا أنني ولدت بعملية قيصرية لكنت قد أنجبت ولداً.

في ذلك اليوم البارد، وهما يتمشيان تحت ندف الثلج كان يهمهم فقط عندما كانت تخاطبه. وما يتذكره هو أنه قال لها:

ـ سوف نرى ما الذي سيقع عندما نكون في مدينة منسك.

استقلا القطار إلى منسك. وقعت أشياء بالفعل. وكان الأمر بمثابة حلم عندما وجد نفسه وحيداً في الدار البيضاء بدونها. إلا أن تلك الدموع التي كانت تترقرق في عينيها وهي تودّعه في المطار، لم يستطع أن ينساها على الإطلاق وربما لن ينساها. وظلّ يتخيل لشهور ذينك الطفلين اللذين كان سينجبهما منها. وكيف أنهما يحملان حقيبتيهما المدرسيّتين باتجاه إحدى المدارس الابتدائية في المعارف. كان الطفلان جميلين أشقرين، عيناهما زرقاوان مثل عيني أمهما، ولا يشبهان بأي حال من الأحوال التلاميذ الذين يدرسون معهم في الفصل.

إذا كان شكسبير قد تحدث عن «حلم ليلة صيف» فقد كان ما حكيناه أعلاه أحلام ليالي ثلج.